الحرب المخابراتية أثناء الثورة المسلحة.

أ. د رابح لونيسي*

تمهيد: عرفت الثورة الجزائرية حربا مخابراتية شرسة بينها وبين الجيش الاستعماري الفرنسي، مثلها في ذلك مثل كل الحروب والصراعات في التاريخ، لكن علينا الإشارة بأن الصراع المخابراتي ليس هو نفسه من حيث الطبيعة والأساليب والأهداف في كل الصراعات، بل يختلف بعضها عن بعض، وسنحاول الآن الإجابة على مجموعة أسئلة تخص المهتم بهذا الموضوع أثناء الثورة المسلحة الجزائرية ما بين 1954 و1962، ومنها: ما هي أهداف الحرب المخابراتية بالنسبة للطرفين المتصارعين أي الجزائري والفرنسي؟ وما هي المستويات التي جرت عليها هذه الصراعات؟ وما هي الأساليب الي استخدمها الطرفين؟ وهل وضعت الهياكل والأجهزة القائمة بها حسب هذه الأهداف والأساليب؟ كما سنتناول بالإشارة إلى بعض العميات المخابراتية الكبرى التي قام بها الطرفان المتصارعان.

لكن قبل هذا كله علينا تناول بعض معالم الصراع المخابراتي بين الجزائريين والفرنسيين قبل اندلاع الثورة المسلحة عام 1954م.

أولا-بعض معالم الصراع المخابراتي بين الجزائريين والفرنسيين قبل عام 1954م: لم يتمكن الاستعمار الفرنسي من تثبيت نفوذه في الجزائر إلا بعد أن جمع أكبر قدر من المعلومات عن الجزائر كأمة وبلد وأرض، وكذلك عن مجتمعها وشعبها ومختلف مكوناتها الطبقية والاجتماعية وكبار الأسر الجزائرية المؤثرة، فلو نعود مثلا إلى تحضير فرنسا لاحتلالها للجزائر، فإنها قد اعتمدت على المعلومات التي جمعها الكابتن بوتان عام 1807 بأوامر من نابليون بونابرت، وقد استندت عليها القيادة العسكرية الفرنسية عام 1830 في اتخاذها قرار دخول الجزائر عن طريق سيدي فرج غرب العاصمة بدل شرقها، ونشير إلى أن الحملات العسكرية التي تعرضت لها الجزائر طيلة العهد العثماني كانت تأتي من شرق العاصمة، وهو ما جعل القيادة الجزائرية تحصن

* – أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر– قسم التاريخ وعلم الآثار– جامعة وهران السانية.

شرق العاصمة بالوسائل الدفاعية في الوقت الذي أهملت فيه غربها، فلم يكن في سيدي فرج إلا مدفع واحد حسب تقرير الكابتن بوتان، وهو الخطأ الذي يجب أن تتجنبه أي قيادة، لأنه بإمكان العدو أن يوهمك بأنه لا يهتم بمناطق معينة، فيدفعك إلى إهمالها ثم يباغتك منها، وهذا هو الخطأ الذي ارتكبته القيادة الجزائرية في العهد العثماني.

كما عمدت القيادة الاستعمارية الفرنسية إلى اختراق بعض المقاومات الشعبية الجزائرية أثناء القرن التاسع عشر، فمثلا اخترقت في الكثير من الأحيان مقاومة الأمير عبد القادر، إما بواسطة دفع الأمير إلى الاستعانة بضباط أوروبيين –ومنهم فرنسيين في بعض الأحيان– في تدريب جيشه وصناعة الأسلحة، كما وقع الأمير تحت سيطرة عاطفته الدينية المتوهجة، وقد عرف الاستعمار الفرنسي استغلالها أحسن استغلال باختراق مقاومته تحت غطاء اعتناق فرنسيين الدين الإسلامي والترحاب بهم من طرف الأمير، ولم يكن يعلم أنهم مجرد جواسيس للجيش الاستعماري، ويأتي على رأس هؤلاء الجواسيس ليون روش الذي أخترق مقاومة الأمير تحت غطاء الإسلام، وأطلق على نفسه لقب "الحاج عمر"، وقد كان ليون روش وراء استصدار فتوى فيما بعد من الحجاز تعتبر مقاومة الأمير غير شرعية دينيا، وقد ألف هذا الجاسوس كتابا فيما بعد يروي مغامراته التجسسية لصالح فرنسا عنونه ب "32 سنة تحت راية الإسلام"[1].

ودائما في إطار جمع المعلومات عن الجزائريين ومتابعة تحركاتهم، أنشأ الاستعمار الفرنسي في القرن التاسع عشر المكاتب العربية في كل مناطق البلاد، وهي مكاتب ظاهرها إداري، لكن باطنها هو جمع المعلومات، ويترأسها ضباط عسكريون، وقد كتب هؤلاء الضباط الكثير من التقارير، بل يمكن لنا اليوم أن نقول أن هذه التقارير التي نشرها بعض هؤلاء الضباط على شكل كتب، بأنها تشكل مصدرا هاما لتاريخ الجزائر في هذه الفترة خاصة في مجاله الاجتماعي ومختلف الصراعات القبلية والعروشية والأسرية التي عرفها المجتمع الجزائري آنذاك، والهدف من جمع هذه المعلومات هو توظيفها في إثارة الفتن بين الجزائريين واستخدام بعض القبائل والأسر لتحقيق الأهداف الاستعمارية.

وقد أخذت عملية جمع المعلومات ودراسة المجتمع الجزائري آنذاك في الكثير من الأحيان طابعا وغطاء علميا، هدفها الاستكشاف، ويمكن أن نذكر في ذلك على سبيل المثال لا الحصر مهام ميشال دو فوكو في الصحراء والمستشرق لويس ماسينيون الذي ربط علاقات وطيدة

خاصة مع المثقفين الجزائريين، لكنه في الحقيقة كان يعمل لصالح وزارة المستعمرات، كما يمكن أن نشير أيضا إلى أوغستان بيرك الذي كانت مهمته في الحقيقة مراقبة ومعرفة وفي بعض الأحيان التأثير على النخب الجزائرية المثقفة بوصفها موجهة للرأي العام، وكل ذلك تحت غطاء التعاطف مع الجزائريين.

كما عرفت المخابرات الاستعمارية كيف تخترق الكثير من التنظيمات الجزائرية، وقلبت بعض الوطنيين إلى عملاء لها بعد إلقاء القبض عليهم مثلما فعلت مع بلحاج الجيلالي الذي تحول من وطني كبير داخل حزب الشعب الجزائري إلى جاسوس لها داخل هذه التنظيمات منذ عام 1950، ونشير إلى أنه قد كلف عشية الثورة بتدريب الجزائريين بصناعة المتفجرات واستخدامها بوصفه كان يعمل في الجيش الفرنسي من قبل، وبواسطته اكتشف البوليس الاستعماري في حقيقة الأمر خيوط اندلاع الثورة الجزائرية، وعرف أن هناك شيئا ما يحضر في الخفاء، لكن لحسن حظ قيادة الثورة أن تقارير المسؤول الأمني في الجزائر جون فوجور لم تأخذها باريس باهتمام كبير وأهملتها نوعا ما[2].

وقد تحول بلحاج الجيلالي فيما بعد إلى عنصر فعال في أيدي السلطات الاستعمارية لمغالطة الرأي العام كما سيأتي ذكر ذلك فيما بعد، وهو يشبه تقريبا نفس مسار محمد بلونيس الذي كان وطنيا في الحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطية ليصبح مصاليا بعد اندلاع الثورة ثم ليتحول إلى أداة مخابراتية في يد الجيش الاستعماري فيما بعد أثناء الثورة المسلحة.

ولمواجهة الأخطار الاستعمارية تربى المناضل الجزائري في الحزب الاستقلالي على السرية التامة، وبقي على ذلك حتى لما بعد استرجاع الجزائر استقلالها، وأصبحت السرية مرتبطة بشخصية المناضل ذاته وطبيعة فيه، ونشير إلى حرص الحزب الاستقلالي على تنظيمين أحدهما علني هو الحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطية يعمل في العلنية ويشارك في الانتخابات، لكن كان هناك تنظيما ثانيا للحزب لا يعلمه إلا القادة، وحتى أعضاءه لا يعرفهم الاستعمار، وكل ذلك بهدف التحضير للثورة المسلحة التي كانت تحضرها المنظمة السرية، أي بتعبير آخر حزب الحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطية كان مجرد حزبا تمويهيا لإخفاء التنظيم الحقيقي التي يضم عناصر لا يعرفها البوليس والمخابرات الاستعمارية، وقد كانت هذه العملية وراء مغالطة البوليس الاستعماري بعد اندلاع الثورة المسلحة، وهو ما سمح

بتنظيم الثورة عسكريا دون إغفال منظمتها المدنية التي كانت عاملا رئيسيا في إنجاح الثورة التي تحول جيشها مثل السمك في البحر.

ثانيا-أهداف العمل المخابراتي أثناء الثورة ومختلف أجهزته: يمكن لنا القول أن العمل المخابراتي الجزائري أثناء الثورة المسلحة قد مر بمرحلتين حددتهما تطور الأهداف وتطور الهيكلة والتنظيم، ففي بداية الثورة كان الهدف التجسس على العدو وتحديد الأهداف الواجب تدميرها، كما يتطلب الأمر حماية أمن الثورة من محاولات اختراقها والتأكد من المنظمين إليها بأنهم لا يخدمون مع العدو، وتستخدم في ذلك أساليب تقليدية جدا، لكن فيما بعد تطور الأمر عندما شرع عبدالحفيظ بوصوف في إنشاء سلاح الإشارة بالاعتماد على الطلبة الذين التحقوا بالثورة غداة إضراب 19 ماي 1956م، وتم تكوين هؤلاء على استخدام هذا السلاح بالمغرب الأقصى، ثم إرسالهم إلى الولاية التاريخية الخامسة التي كانت تحت قيادة بوصوف، وهذا ليس معناه عدم اهتمام القادة الآخرين بهذا السلاح، فقد كان بن بولعيد ضحية البحث عن أجهزة للاتصالات، فاستغلت المخابرات الاستعمارية ذلك فأوقعته في الفخ عندما فخخت أحد الأجهزة الذي أتي به، والذي لم يكن إلا عملية مخابراتية استعمارية لتصفية قائد أحد أكبر معاقل الثورة آنذاك.

وتطور سلاح الإشارة بعد أن أصبح بوصوف عضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ مكلف بسلاح الإشارة بعد مؤتمر المجلس الوطني للثورة الجزائرية بالقاهرة عام 1957، وشرع في تكوين أربع دفعات لسلاح الإشارة وإرسالها إلى مختلف الولايات التاريخية.

من الممكن أن يسأل البعض ما علاقة سلاح الإشارة بالعمل المخابراتي؟، فنجيب بأن بوصوف وقيادة الثورة اكتشفت بأنه بواسطة هذا السلاح بإمكان التصنت على العدو وتحركات جيشه، فجاءت من هنا فكرة إنشاء أجهزة تصنت على العدو، خاصة وأن هذا الأخير كان يستهين بإمكانيات الثورة، فلم يكن حريصا على حماية الشفرة التي كان يستخدمها، ومن هنا جاءت فكرة إنشاء مصلحة الاستخبارات، فأنشأت مركزين للتصنت على العدو في كل من وجدة المغربية منذ عام 1956 والكاف بتونس منذ عام 1958، وقد كانا هذين المركزين مصدرين لمعلومات هامة في خدمة الثورة، وكانت تعطى التقارير يوميا لتحليل المعلومات والتدخل بسرعة إن كان الأمر يتطلب ذلك لحماية الثورة في الداخل أو التنبيه لعمليات عسكرية يستعد لها العدو، ولهذا السبب ارتبط سلاح الإشارة بالمخابرات آنذاك.

ولإعطاء صورة عن هذه المراكز نورد ما نقله المجاهد مصطفى بن عمر الذي كان في مركز التصنت بالكاف بتونس حيث يقول بأن "الأجواء بالمركز كانت تتسم بالسرية الكاملة، وبالانضباط التام والعفوي نظرا لروح المسؤولية العالية التي كان يتحلى بها الإخوة في القيام بعملهم، لم يكن يسمح بالخروج ما عدا المكلف بالطبخ...أما النشاطات اليومية فكان يطبعها أساسا السعي إلى تحقيق النجاعة والفعالية"، ويورد طريقة العمل في هذه المراكز بالقول" كنا قد انتقينا المحطات المستهدفة على أساس ما يمكن أن نجد من معلومات مفيدة، ورتبناها حسب كل هيئة في هرم نظام المستعمر، كما رتبنا المعطيات التقنية المتعلقة بها ترتيبا دقيقا، وهكذا كانت شبكة الجندرمة محل مراقبة خاصة، لأنها كانت بالنسبة لنا مصدر نستقي منه آخر المعلومات.تمكنا كذلك بفضل عبقرية بعض الإخوة من التحكم في كل ما يهمنا من المحطات عبر التراب الوطني سواء أكانت مدنية أو عسكرية، ومعرفة الرموز التي تستعملها...وكان يستغل جهاز استقبال خاص من أجل الكشف عن محطات جديدة، وعن أسرار الطرق المستعملة من طرف العدو في ميدان الاتصالات"، ويقول عن دوره في المركز: "كنت أتدخل خاصة في تحديد مكان كل عملية تكون محل اتصال بين مراكز هيئة القيادة الفرنسية، وبين وحداتها في الميدان كالتمشيطات أو الاشتباكات أو الكمائن"[3].

وبعد تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958، وضعت وزارة التسليح والاتصالات العامة بقيادة بوصوف، وهي في الحقيقة وزارة للمخابرات، ويمكن أن يسأل البعض لماذا جمعت المخابرات بالتسليح؟، وهنا تأتي الإجابة من متطلبات الثورة ذاتها، فنشير أن من قبل كان محمود شريف عضو لجنة التنسيق والتنفيذ مكلف بالتسليح، لكن وجد صعوبات جمة للقيام بهذه المهمة، ويعود ذلك لعدة أسباب ومنها إقامة خطي موريس وشال على الحدود، إضافة إلى الحصار الفرنسي المضروب على كل محاولات التزود بالأسلحة، وتصفيتها للكثير من تجار الأسلحة الذين يتعاملون مع الثورة الجزائرية أو استخدامهم لكشف كل محاولات شراء السلاح والخيوط التي تؤدي إلى ذلك، ولهذا تبين ضرورة إنشاء مصالح مخابراتية مهمتها حماية مزودي السلاح للثورة الجزائرية وطرق مرور هذا السلاح سواء البواخر أو غيرها، بالإضافة إلى معرفة شبكات تجار الأسلحة والمحاولات الفرنسية لاختراقها، ولهذا أضيفت مهمة أخرى لجهاز المخابرات وهو التسليح، بالإضافة إلى الإشارة وحماية الثورة داخليا

من المحاولات الإختراقية وكشف المخططات الاستعمارية لتدميرها من الداخل، إضافة إلى جمع أكبر قدر من المعلومات عن العدو الذي يعد المهمة الرئيسية للعمل المخابراتي.

وبناء على ذلك كله يتبين لنا مختلف المصالح التابعة لوزارة التسليح والاتصالات العامة وهي:

1-المديرية الوطنية للمواصلات اللاسلكية DNT: تتلخص مهمتها طبعا في ربط الاتصالات بواسطة اللاسلكي سواء بين الداخل والخارج، أو بين القادة في الداخل، وكانت تواجه حرب المواصلات اللاسلكية إما بالتشويش عليها أو كشف شفرتها، وقد كان جندي الاتصال مستهدف بشكل كبير أثناء الثورة، وقد جاءت في تعليمة للجنرال كريبيون تقول: "أنه إذا وجدتم كتيبة من جيش التحرير ومحطة للمواصلات، فعليكم أولا وقبل كل شيء القضاء على محطة المواصلات"، ونشير مثلا إلى أن جنود الاتصالات في الولاية الثالثة مثلا قد استشهدوا كلهم، وبلغ عدد شهداء هذا السلاح أكثر من 87 شهيد تكونوا كلهم ضمن 13 دفعة تكونت كلها في كل من المغرب الأقصى وتونس.[4]

2-المديرية الوطنية للرموز والشفرة DNCH: تتلخص مهمتها في فك شفرات الاتصال لدى الجيش الاستعماري وتغيير الشفرات المستعملة لدى جيش التحرير الوطني والمعرفة في الوقت المناسب إن اكتشفت أم لا، فكانت الرموز والشفرة ميدان حرب دائمة بين الطرفين، وكانت تسمى ب"حرب الأرقام"، ويقول كل من محمد دباح وسنوسي صدار أحد مؤسسي سلاح الإشارة والمساهمين بدور كبير في حرب الأمواج بأن "عدد الشفرات كان جد مرتفع، وكل مجموعة لها وسائلها الخاصة ومفاتيحها المختلفة التي يجب أن تتغير دائما...لأن العدو لا ينام وبإمكانه أن يكشف شفراتنا بسرعة بفعل الإمكانيات الكبيرة المتوفرة له"[5].

أما سنوسي صدار فيقول: "بأنه في الكثير من الأحيان سمح لنا فك شفرة العدو من وضعه في أخطاء فادحة، فيزرع الرعب في قواته، فقد نجحنا في بعض الأحيان في مغالطة طيران العدو وجعله يقصف وحداته العسكرية الصديقة أي الاستعمارية، كما حصل على الحدود التونسية عندما وقع اشتباك بين الطيران والمشاة الإستعمارية".[6]

3-المديرية الوطنية للاتصالاتDL: تتلخص مهمتها في الاتصال والبريد، فقلما استخدمت الثورة البريد العادي، بل كانت تستخدم الطائرات بين القاهرة وتونس، كما كانت تحدد صناديق سرية للبريد، وكانت تتبع حتى بريد العدو في المغرب الأقصى مثلا.

4-المديرية الشرقية للسوقيات والتسليح DLE والمديرية الغربية للسوقيات والتسليح DLO: مهمتها التسليح على الحدود الشرقية وكذلك الغربية، والتحقق من تجار الأسلحة إن لم يكونوا من المخابرات الاستعمارية، وحماية بعض المتعاملين مع الثورة من الاغتيالات الاستعمارية، وإيجاد الوسائل والأساليب المخابراتية لشراء الأسلحة وإدخالها إلى أرض الوطن بعيدا عن أعين المخابرات الفرنسية وقواتها البحرية التي كانت تراقب السواحل خاصة بعد اكتشاف باخرة آتوس.

وعلينا أن نشير إلى الحرب المخابراتية الكبرى على مستوى الإمداد بالأسلحة، فقد تمكنت المخابرات الفرنسية التي كان لها جهاز خاص يسمى ب"المكتب24" بقيادة العقيد لامي، مهمته مواجهة كل أساليب المخابرات الجزائرية في التسليح، لأنه يعتبر أهم عنصر أثناء الثورة، ولهذا تمكن هذا الجهاز الفرنسي من تصفية واغتيال الكثير من تجار الأسلحة المتعاملين مع الثورة الجزائرية، ونذكر من ضمنهم الألماني George Puchert أحد المساعدين البارزين ل Marcel Leopold الذي لم يرضخ للتهديدات الفرنسية بعد الثورة بالأسلحة، وقد قتل الكثير من مقربيه قبل أن يغتال في فرنكفورت فيما بعد[7].

كما تمكنت المخابرات الاستعمارية من إيقاف أو تفجير بعض السفن المحملة بالسلاح للثورة الجزائرية مثل باخرة آتوس عام 1956 بواسطة عميل يوناني لها الذي أخبرها بانطلاق الباخرة، ولقيت باخرة سلوفينيا نفس المصير، لكن نجحت الثورة في مغالطة المخابرات الفرنسية كما حصل مع باخرة بلغاريا وكذلك باخرة شوليم وكذلك أورغان عام 1961 بعد ما اعتقد الفرنسيون أنها ستنطلق من لبنان وتحط في تونس لكنها حطتا في الدار البيضاء في المغرب.[8]

5-المديرية الوطنية للوثائقية والبحث DDR: تعد من أهم مصالح المخابرات، وكانت تدعى بقاعدة ديدوش مراد ومركزها في طرابلس بليبيا بسبب المساعدة الليبية للثورة في المجال المخابراتي عكس مصر أو تونس اللتان كانت مرتعا للمخابرات الفرنسية، ويبدو هذا ما يفسر انعقاد أغلب مؤتمرات المجلس الوطني للثورة الجزائرية بطرابلس، وكانت من مهام هذه المديرية جمع كل المعلومات الخاصة بالجانب العسكري والاقتصادي والسياسي والدبلوماسي باستخدام كل الأساليب والوسائل كالجواسيس والصحف والأخبار بعد تحليلها تحليلا دقيقا، كما كانت تعد الدراسات لقيادة الثورة، فثلا تمكنت من معرفة كل الإستراتيجية الفرنسية أثناء مفاوضات إيفيان فأعطتها للوفد المفاوض، لكنه استهان بها في البداية، لكن اكتشف هذا الوفد

صحة المعلومات أثناء المفاوضات، مما دفعه إلى المطالبة بتعليق المفاوضات لمدة أسبوع، وكان هدفه من ذلك دراسة تلك الإستراتيجية والرد عليها بالأساليب المواتية، وقد كانت في يد هذه المديرية الأطنان من الوثائق الخاصة بالعدو، لكن أيضا الخاصة بالثورة بهدف حماية الثورة من الخونة والاختراق، فكان لكل فرد ملف، وحتى لمسؤول وزارة التسليح والاتصالات العامة ذاته أي بوصوف ملف خاص به مثل الآخرين، ويروي البعض أن بن طوبال طلب من بوصوف الإطلاع على ملفه الخاص فقال له أنهم أعرف بي من نفسي، وأطلع أيضا على ملف بوصوف ذاته.

يقول إبراهيم لحرش بأن: هذه المديرية كانت مهمتها "البحث واستغلال كل المعلومات الخاصة بالحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية في كل دول العالم، خاصة بفرنسا والجزائر والبلدان المجاورة والصديقة والشقيقة، وتجمع المعلومات التي تأتي من كل المصادر، ثم تحللها وتضع تقاريرها بناء عليها، كما تضع الدراسات الموجهة إلى الحكومة المؤقتة"[9].

ونشير إلى قدرة المخابرات الجزائرية أثناء الثورة المسلحة من إنشاء عدة شبكات تجسس في عدة بلدان أهمها كانت في فرنسا حيث تمكن أحد الجزائريين الذين يملكون حانة مهمة في باريس من تجنيد صحفي فرنسي وعضو بارز في مكتب ديغول، وبواسطته تمكنت مثلا من معرفة التفاصيل الدقيقة للإستراتيجية الفرنسية في مفاوضات إيفيان كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، كما كانت لها شبكة هامة جدا في إسبانيا كانت تراقب كل تحركات البحرية الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط.

كما تمكنت من الحصول على كل المعلومات الخاصة بمشروع قسنطينة بواسطة صالح بوعكوير الذي كان نائبا لمدير المصلحة الاقتصادية والاجتماعية للحكومة العامة بالجزائر، وقد اغتالته منظمة الجيش السري فيما بعد.

هذا ما يدفعني إلى طرح مسألة هامة اليوم، فالكثير من الجزائريين ضحوا بشرفهم، فظهروا كأنهم خونة يخدمون لصالح الاستعمار، بل في بعض الأحيان اضطروا إلى القيام بأعمال ضد وطنهم، لكن هذا كله كانت مخادعة منهم للعدو لكسب ثقته مما يتسنى لهم تسهيل مهامهم خدمة للثورة من داخل الهيئات الاستعمارية، وبتعبير آخر كانوا جواسيس للثورة، فقد كانوا مصدر معلومات هامة جدا للثورة سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي.

6-المديرية الوطنية لليقظة ومضادة الجوسسة DVCR: مهمتها استغلال المعلومات وحماية الثورة من كل المحاولات الاستعمارية لاختراقها، كما تتبع الجواسيس الفرنسيين أو العاملين مع المخابرات الفرنسية إما لتصفيتهم أو لتحييدهم أو مغالطتهم، وكانت تتعاون مع بعض المخابرات العالمية مثل المخابرات الألمانية، فقد كانت هذه الأخيرة تمدها بمعلومات حول النشاطات الفرنسية في ألمانيا مقابل أن تمدها هذه المديرية بمعلومات عن الشيوعيين الألمان. ونشير إلى أن هذا الجهاز قد تمكن من كشف خلايا للجوسسة الفرنسية في القاهرة تحت غطاء ثقافي، ونفس الأمر بتونس، وقد تمكن بالتعاون مع أجهزة هذين البلدين من تحييدهما وإلقاء القبض على عناصرها.

7-المصلحة الخاصة بتشجيع عسكر اللفيف الأجنبي على الفرار وترحيلهم إلى بلدانهم SRL: تتلخص مهمتها في تشجيع اللفيف الأجنبي العامل في الجيش الفرنسي على الهروب ثم السعي لجلب معلومات منهم بعد ذلك، كما كان يهرب الكثير منهم إلى بلدانهم للقيام بالدعاية للثورة الجزائرية، كما يعمل على كشف مدى إخلاص هؤلاء الهاربين أو أنهم يعملون مع المخابرات الاستعمارية لاختراق الثورة، وقد اكتشف البعض من هؤلاء الأخيرين أثناء الثورة.

ويمكن أن نضيف مصلحة أخرى بقيت سرية وتسمى ب "المصلحة الخاصة S4"، وهي التي كانت وراء عملية إنتاج بعض الأسلحة في المغرب الأقصى، حيث تمكنت من تجنيد بعض المهندسين الأوروبيين لذلك، وتهريب بعض المعدات الصناعية للقيام بهذه المهمة والحفاظ على أمن هذه المصانع[10].

أما من الجانب الاستعماري فقد كانت الأعمال المخابراتية تتكفل به مديرية مراقبة الإقليم DST، ومصلحة التوثيق الخارجي ومضادة الجوسسة SDECE، بالإضافة إلى المكتب الثاني الذي مهمته الجوسسة والمكتب الخامس مهمته الحرب النفسية، واللذان كانا تابعين مباشرة للقيادة العسكرية في الجزائر، ونشير إلى أن وزارة القوات المسلحة التابعة للثورة آنذاك بقيادة كريم بلقاسم لها أيضا مكتب ثاني على نفس الشاكلة التنظيمية الفرنسية، وكان يعمل بالتنسيق مع وزارة التسليح والاتصالات العامة.

ونشير إلى أن هذه المصالح التابعة لوزارة التسليح والاتصال كانت تقوم بمهامها على أكمل وجه في الخارج وفي الولايات الحدودية، لكن الأمور كانت صعبة جدا بالنسبة للولايات الداخلية بسبب بعد المسافة وصعوبة الاتصال والحصار الاستعماري المفروض عليها، لكن

للولايات التاريخية مصلحة الاستعلامات التي كانت تعمل على المستوى المحلي أي الولاية والناحية والمنطقة.

وتتلخص مهمة مسؤول المخابرات على المستوى المحلي حسب النقيب محمد صايكي الذي تولى هذا المنصب عام 1959 في الناحية الأولى للولاية التاريخية الرابعة فيحددها بالقول أن "دور المخابر نفيس وإستراتيجي، لذا بني نظام الثورة مخططه عليه، وكان يسعى إلى جمع المعلومات الدائرة حول العدو المتمركز في الجهة كضبط عدد جنود العدو وكم عدد الجزائريين المجندين مع الجيش الفرنسي في سبيل إقناعهم بالتسلل من صفوفه ليجلبهم من جديد إلى جيش التحرير، وعند فشله في ذلك يسعى المخابر عندئذ إلى الاتصال بذويهم حتى يقنع أبنائهم على العمل مع جيش التحرير الوطني، يتم الاتصال معهم عن طريق المسمى باتصال القسم أو الناحية أو المنطقة أو عن طريق البريد. يسلم المخابر تقريرا حول عتاد العدو، ويسجل ذلك بدقة متناهية، دون إغفال عدد الدبابات والشاحنات والجنود الفرنسيين، وأسماء الطرق التي سيمرون بها وذلك لتحديد مكان الكمين. يواصل مسؤول المخابرات في تكوين شبكة للاتصالات فيما بين الولايات والمناطق والنواحي والقسم، ويقوم المسؤول أيضا بدراسة رد فعل العدو بعد المعارك...ويعمل أيضا على تشكيل خلايا سرية داخل صفوف الشعب، وكذا داخل الجيش، وذلك بغية تزويده بالمعلومات اللازمة المنوطة بمعنويات الشعب والجيش، وكل ما من شأنه أن يمس باستقرارهما..."[11].

ونشير إلى أن نفس هذا المسؤول يروي في مذكراته كيف تم اكتشاف وتفكيك شبكة للتجسس تابعة للعدو الفرنسي في الولاية الرابعة في مارس 1959، وأوضح طريقة عملها، وتدخل في نظره في إطار الحملة التي قادها بعض القادة ضد المشبوهين في إطار ما يعرف بقضية لابلويت التي سيأتي ذكرها فيما بعد، والتي أثارت الكثير من الجدل فيما بعد[12].

ثالثا–العمليات المخابراتية الكبرى: يمكن أن نحدد العمل المخابراتي على عدة مستويات، وأيضا حسب المراحل، أي قبل إنشاء وزارة التسليح والاتصال وبعدها، وأيضا بالتمييز بين الخارج والداخل، ومن هذه المستويات نجد الإختراق ومواجهته مثل عملية العصفور الأزرق في منطقة القبائل وعملية البلويت في نفس المنطقة، وكذلك قضية كوبوس في الولاية الرابعة وبلونيس في الولاية السادسة. ونجد أيضا التصفيات وإلقاء القبض على بعض القادة مثل عملية تصفية بن بولعيد وإلقاء القبض على رابح بيطاط، وهناك مستوى كشف خلايا الجوسسة

الاستعمارية ومغالطتها، وهناك مستوى آخر يتمثل في تهريب الأسلحة وإدخالها إلى الجزائر بعيدا عن أعين الرقابة الفرنسية المفروضة على السواحل وخطي موريس وشال الحدوديين.

لقد استخدمت المخابرات الاستعمارية سلاح الإشارة ومدى حاجة الثورة إليه لتصفية البعض من القادة، ومنهم مصطفى بن بولعيد في الأوراس الذي كانت هذه المخابرات تدرك جيدا دوره في الثورة والحفاظ على وحدتها في أحد أهم معاقلها، كما كانت تعلم أن تصفية بن بولعيد سيؤدي إلى نوع من الصراعات داخل هذه المنطقة التاريخية بفعل بعض العقليات العروشية والقبلية التي غذتها فرنسا من قبل في الجزائر، ولعل ذلك ما جعل الجنرال سيمون يصرح "أن منطقة الأوراس هي فعلا معقل الثورة، لكن ستصبح هي مقبرة لهذه الثورة"، وبناء على ذلك تم التخطيط لتصفية بن بولعيد بواسطة تفخيخ جهاز للاتصالات تمكنت من رميه في المنطقة بإحكام، لكن هذه التصفية قد أدت إلى زرع الشك في المنطقة حول إستشهاده وإثارة فتنة جعلت قيادة الثورة بعد مؤتمر الصومام عام 1956 ترسل وفدا بقيادة عميروش آيت حمودة لحل المشكل وإعادة الاستقرار للولاية الأولى.

ونشير أن الولاية الثالثة أي منطقة القبائل قد عرفت عملية مماثلة حيث تعرض قائدها الأخير محند ولحاج إلى محاولة تصفية بنفس الطريقة في وقت عرفت نوعا من الصراعات والتذبذبات الداخلية، لكن نجا محند بلحاج بأعجوبة في الوقت الذي استشهد فيه أحد مساعديه، وتعود هذه العملية بعد نجاح نسبي لمحاولات الولاية الثالثة إنشاء إذاعة سرية موجة للسكان من داخل الولاية لمواجهة دعاية إذاعة "صوت البلاد" الإستعمارية[13].

كما عرفت بدايات الثورة عملية مخابراتية أخرى أدت إلى اعتقال رابح بيطاط بالعاصمة، وكانت العملية تستهدف إلقاء القبض على بيطاط وكريم بلقاسم وعمر أوعمران، وقد استغلت المخابرات الاستعمارية مدى حاجة المجاهدين إلى السلاح، فاستخدمت شخصا تحت غطاء أنه مرسل من الوفد الخارجي وبأنه بصدد قضية تسليح هامة جدا لمنطقة الوسط الجزائري، لكن كان هذا الشخص مجرد أداة لجلب هؤلاء القادة إلى المصيدة، لكن وقع فيها بيطاط، ونجا كل من كريم بلقاسم وأوعمران بأعجوبة، ويعود ذلك حسب ما يبدو إلى حذرهم الشديد ومعرفتهم الدقيقة بشوارع العاصمة عكس رابح بيطاط[14].

أما العملية الكبرى التي عرفتها بدايات الثورة، فتتمثل في عملية العصفور الأزرق التي أرادت من خلالها المخابرات الاستعمارية، وبإشراف الحاكم العام سوستيل إنشاء قوات موازية

لجيش التحرير الوطني تقوم بعملية تشويه المجاهدين وضرب مصداقيتهم في صفوف الشعب بهدف عزلهم عنه، ورأت أن تبدأ في تنفيذ العملية في منطقة القبائل التي كانت معقلا هاما للثورة آنذاك إلى جانب الأوراس، فكلفت شخصا من العاصمة لتنفيذ هذه المهمة، وبدأ هذا الشخص في اتصالاته لتكوين هذا الجيش المزيف، لكن أول شخص أعطى له الثقة والعارف بالمنطقة كان في الحقيقة من المجاهدين الذي لا تعرف عنه حقيقته، وذلك بفضل النظام السري الذي بدأ في حزب الشعب الجزائري كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك، فاتصل هذا الشخص بقائد المنطقة كريم بلقاسم، الذي أمره بتجنيد حوالي ألف مجاهد لا تعرف حقيقتهم المخابرات الاستعمارية، فسلمت لهم الإدارة الاستعمارية الأموال والسلاح لتشكيل هذا الجيش الذي في حقيقة الأمر عناصره كلها تابعة للثورة وتحت إمرة كريم بلقاسم، ونشير إلا أن هذا الأخير كان ملما جدا بالعمليات المخابراتية حيث أطلع عندما كان في الجبال منذ 1947 على عشرات الكتب حول الجوسسة.

لكن بعد مدة خشي كريم بلقاسم من أن يظهر الشك لدى المخابرات الاستعمارية حول الجيش الذي كونته، فأعطى أوامره بالالتحاق بالثورة وعدم مواصلة العملية، فبذلك تمكنت الثورة في منطقة القبائل من جلب عدد كبير من الأسلحة والأموال تتجاوز أكثر من ألف قطعة سلاح بواسطة المخابرات الاستعمارية، فجن جنون السلطات الاستعمارية، ولم يكتف كريم بلقاسم بذلك، بل أرسل رسالة يسخر فيها من سوستيل ويشكره على الأموال والسلاح التي بعثها لجيش التحرير الوطني، فقد بقيت هذه العملية غصة في حلق المخابرات الاستعمارية، وأصرت على الانتقام ورد الصاع صاعين، فكان لها ذلك في عملية لابلويت مع نفس المنطقة، والتي سيأتي ذكرها فيما بعد[15].

وعرفت منطقة الغرب الجزائري نفس العملية تقريبا، ونقلت تفاصيلها صحيفة المجاهد لسان حال الثورة المسلحة، وتسمى ب"عملية لامبير" حيث فكر والي عمالة وهران في تجنيد مجموعة من الجزائريين لمواجهة جيش التحرير الوطني في المنطقة، فوصل الأمر إلى بوصوف الذي أمر بالسير في الخطة التجنيدية الاستعمارية، وبعد مدة تمكنت القيادة في المنطقة من جلب عدد كبير من قطع الأسلحة[16].

وعرفت الولاية التاريخية الرابعة نفس عملية العصفور الأزرق تقريبا، وذلك عندما عملت المخابرات الاستعمارية على إنشاء جيش تحرير وطني مواز وينافس جيش وجبهة

التحرير الوطني الأصيلتين، واستخدمت في ذلك شخصية قد سبق لنا ذكرها، وهي بلحاج الجيلالي الذي سبق أن قلنا أنه كان في الحزب الاستقلالي قبل الثورة لدرجة من الصعب جدا الشك فيه أو القول أن المخابرات الاستعمارية قد قلبته إلى جانبها منذ عام 1950، وشرع هذا الرجل في تنفيذ مخطط سمي ب"كوبيس"، وبني هذه المرة على التشكيك في جيش التحرير الوطني وبأن عناصره من الشيوعيين ومعادين للدين الإسلامي بهدف استمالة أصحاب النزعة الدينية، فأسس جيشا آخر تحت غطاء وطني، لكن يعمل تحت إمرة المخابرات الاستعمارية، لكن تمكنت قيادة الثورة في المنطقة من استمالة البعض من عناصره للتخلص منه والإتيان برأسه ونجحوا في ذلك، حيث تمكنوا من الاستيلاء أيضا على الكثير من قطع السلاح[17].

وعرفت قضية المصالي محمد بلونيس نفس المصير تقريبا في الجنوب الجزائري، لكن خشيت المخابرات الاستعمارية من تردد بلونيس مرة بين المصالية والعمل مع هذه المخابرات، ففضلت التخلص منه في بوسعادة عام 1958 قبل أن يقع لها نفس ما وقع مع عملية كوبيس، فيحوز جيش التحرير الوطني على الأسلحة التي كانت تقدمه لقواته التي سميت آنذاك ب"الجيش الوطني الشعبي الجزائري" وسمحت له برفع العلم الجزائري لمغالطة الشعب، ونصب بلونيس نفسه قائدا عليها برتبة جنرال[18].

لكن أكبر عملية مخابراتية ضد الثورة كانت عملية لابلويت، وقد جاءت أسبابها بفعل معركة الجزائر وهروب بعض المناضلين إلى الولايتين التاريخيتين الثالثة والرابعة، بالإضافة إلى الضغط والتعذيب الاستعماري الذي مورس آنذاك، فتمكنت المخابرات الاستعمارية من تجنيد البعض من الذين كانوا في صفوف الثورة من قبل، وتمكن العقيد ترينكيي من فرض الرقابة التامة على كل أحياء العاصمة بتنظيمها حسب المجمعات تحت سلطة مخبرين كانوا يعملون في الثورة، كما تمكن الكابتن ليجي من تنظيم عملية لابلويت عندما ألقي القبض على إحدى المجاهدات، ثم تمكن من القيام بجولة برفقتها في العاصمة لمغالطة أعين الثورة واعتبارها بأنها قد أصبحت تعمل مع الجيش الاستعماري، وفي يوم من الأيام أدخلها إلى مكتبه لاستنطاقها، وترك أمامها قائمة لأسماء قادة كبار يعملون في الولاية الثالثة، بدعوى أنهم يشتغلون مع المخابرات الاستعمارية، كما أقنعها بذلك لأنه قد سبق أن حصل على رسائل للبعض من هؤلاء القادة، وذلك بفعل أحد الخونة الذي انقلب على الثورة في العاصمة دون علم القيادة بذلك، والذي كلف بإعادة تنظيم الثورة في العاصمة بعد معركة الجزائر، ثم فسح ليجي المجال لهذه المجاهدة بالهروب إلى

منطقة القبائل فسارعت إلى إخبار قادة المنطقة الأولى للولاية في حدود برج أم نايل بما اكتشفته، وتحذرهم من بعض الذين اعتقدت أنهم خونة، فاشتغلت الآلة الجهنمية من التحقيقات التي أدت إلى زرع الشك والبلبلة في صفوف الثورة وتصفية الكثير من المجاهدين المخلصين، وبذلك وقع قائد الولاية عميروش في الفخ الذي نصبته له المخابرات الاستعمارية، فاعتقد بأنه قد اكتشف مؤامرة كبرى داخل الثورة فشرع في مراسلة قادة الولايات حول هذه المؤامرة، فانتقلت التحقيقات إلى الولايات الرابعة والسادسة، لكن بقيت الولايات الأخرى تتحرى الأمر[19].

ويقول فرحات عباس أنه عندما وصل الأمر إلى قائد القوات المسلحة كريم بلقاسم أذهله الأمر، وقال بأن من غير المعقول أن يكون هؤلاء الذين عرفهم عن قرب خونة للثورة، مما جعل فرحات عباس يفسر بأن تغيير القيادات وخروج القيادات الأولى هو الذي سبب في هذه المأساة[20].

ويجد الكثير الأعذار للشهيد عميروش في وقوعه في هذا الفخ بفعل الظروف الصعبة للثورة والخوف عليها من الخونة والحرص التام على سلامتها، خاصة وأن عميروش معروف بشكه وحذره الشديد، ولعل هذا ما استغله الكابتن ليجي فيه، ويرى آخرون بأن الحصار الاستعماري المضروب على الداخل والذي فصل عن الخارج هو الذي سهل الأمر على المخابرات الاستعمارية في هذه العملية، خاصة وأن وزارة التسليح والاتصالات العامة لم تكن على علم بهذه العملية، وإلا لا أمكن تفكيك خيوطها، لكن يجب أن نضع في حسباننا كما أشرنا من قبل إلى اكتفاء هذه الوزارة بالعمل الخارجي وتأثيرها على الولايات الحدودية فقط دون أن تتمكن من تنظيم نفسها بشكل جيد في داخل البلاد.

هذه بعض العمليات الكبرى، لكن هناك عمليات أخرى من الصعب جدا معرفتها بسبب مدى سرية العمل المخابراتي، لكن بإمكاننا أن نذكر بعضها مثل عملية تهريب الأسلحة بواسطة لفافات القار أي الزفت إلى كل ولايات الداخل، وبواسطة شبكات تعمل في المؤسسة الصناعية **Reberoit** والتي لها فروع في الدار البيضاء في المغرب الأقصى، أو يعملون في شركات تستورد هذه السلعة، وقد كانت هذه الأسلحة تصل إلى كل من قسنطينة ووهران والعاصمة وسطيف لتنقل فيما بعد إلى مختلف الولايات بفعل شبكات جد منظمة، وقد بلغت كمية الأسلحة **10**آلاف رشاش و**20** ألف خزان للذخيرة[21].

الهوامش

* –Leon Roch, 32 ans sous la bannière de l'islam, ed Paris1884

2 –Jean Vaujour, De la révolte a la révolution-aux premiers jours de la guerre d'algerie-, ed Albin Michel Paris2000 .

3– مصطفى بن عمر، الطريق الشاق إلى الحرية، دار هومة للطباعة والنشر الجزائر2007 ص ص194–195

4–مصطفى بن عمر، الطريق الشاق ص ص196–200

5 -Mohammed Debbah, El Watan n°(24 novembre2005)

6- Senoussi Seddar, ondes de choc (les transmissions durant la guerre de libération national), ed ANEP Alger2002 .

7 - Alistaire Horne, Histoire de la guerre d'Algerie, ed Dahlab Alger2007 pp270-273

8– يمكن العودة حول موضوع تهريب الأسلحة من أوروبا إلى كتاب:

Ali Haroun, La 7°Wilaya (La guerre du FLN en France),Casbah Editions Alger2005

9 –Brahim Lahrèche, Algerie-terre de héros-, ed El Maaref,Annaba2007

10- Mohammed Lemkami, Les hommes de l'ombre, ed ANEP2004 pp230-237

11– محمد صايكي، شهادة ثائر من قلب الجزائر، تحرير محفوظ اليازيدي، دار الأمة االجزائر2003 ص ص154–155

12– نفسه ص ص294–301

13 –Abdelhafid Amokrane, Mémoire de combat, Dar El Ouma Alger1998 pp90-94

14 –Yacef Saadi, La bataille d'alger t1, Casbah éditions Alger2002

15– يمكن العودة حول عملية العصفور الأزرق أو عمليةK إلى:

-Yves Courrière, Guerre d'Algerie-Le temps des léopards- ed Fayard Paris1969 pp216-233

– El Moudjahid n°03(Sepetembre1956)

-M'Hamed Yousfi, Les otages de la liberté, ed Alger1993 pp19-32

-محمد الصالح الصديق، عملية العصفور الأزرق، دار دحلب الجزائر1993

16 -El Moudjahid n°28(22/08/1958)

17– مذكرات الرائد سي لخضر بورقعة، دار الحكمة الجزائر1990 ص ص75–79

18 –Historia Magazine n°219(13Mars1972)

19- Paul Alain Leger, Aux carrefour de la guerre, ed Albin Michel Paris1983

-Djoudi Atoumi, Le colonel Amirouche entre légende et histoire-la longue marche de lion de la soumam-, ed Alger2005 pp161-175

20- Ferhat Abbas, Autopsie d' une guerre, ed Garnier Paris1980 p220

21 -M.Lemkami, Op-Cit pp239-250